حازم القُرطاجنّي (ت٦٨٤هـ) والتّشبيه المَقلُوب

أ.م.د. مازن داود سالم الربيعي
كلية التربية للعلوم الإنسانية
جامعة بابل
Mazndawd16@gmail.com

مُلخص البحث :
التّشبيه بيرق البلاغة ورايتها السامقة في سماء الإبداع و فن أصيل من فنون البيان العربي , له مكانته الخاصة عند فرسان البلاغة والشعر ؛ لما له من سعة النطاق وامتداد الحواشي وتشعب الأطراف . والتّشبيه من أكثر الأساليب البيانية دلالة على مقدرة البليغ , ومدى أصالته في فن القول , ونظم القريض .
ونحاول في هذا البحث المتواضع أن نسلط الضوء على التّشبيه المقلوب بوصفه أحد أنواع التّشبيه المعروفة , ونجلّي الصورة التّشبيهية وهي بهذه الخصوصية , ثم نضع اليد على الموقف البلاغي منها في المدونة البلاغية العربية القديمة , وخصوصا عند حازم القُرطاجني (٦٨٤هـ) الذي إنفرد بموقف بلاغي عمد فيه الى إنكار هذا النوع من التّشبيه أعني – التّشبيه المقلوب – وبيان ما يقف خلف ذلك من جدّة وأصالة ومرجعيات .
ولعل من أبرز نتائج البحث : إنكار حازم القرطاجني القَلب وعدّه من وجوه الغموض المُشكِل في المعاني ؛ لأنّه خارج عن الطريق السّوي في النَّظم , وانطلاقه في تعامله مع التّشبيه المقلوب من عوالم النص الذاتية وليس من أفكار قبلية سابقة على النصوص , فضلا عن نتائج أخرى مثبتة في خاتمة البحث .
الكلمات المفتاحية : البلاغة , التّشبيه المقلوب , حازم القُرطاجني , الأدب القديم , النّقد

Hazem Al-Qartajani (684 AH) and the inverted simile

Assist.prof.Dr.Mazin Dawood Salim Al-Rubei
College of Education for human sciences
University of Babylon
Mazndawd16@gmail.com

The analogy with the banner of rhetoric and its lofty banner in the scope of creativity and an original art of Arabic rhetoric has its significant place among the masters of rhetoric and poetry due to its wide scope and extension of the footnotes and the ramifications of the parties. The analogy is one of the most graphic methods indicating the ability of the rhetorician, and the extent of his originality in the art of saying, and the composition of the recitation. In this research, we try to shed light on the inverted simile as one of the well-known types of simile, and to clarify the simile image, which is in this particularity, then we put the hand on the rhetorical position on it in the old Arabic rhetorical blog, especially with Hazem Al-Qartajani (684 AH), who was unique in a rhetorical position in which he deliberately To deny this kind of simile, meaning - the inverted simile - and to clarify what stands behind it in terms of novelty, originality and references.

Among the most prominent results of the research: Hazim Al-Qartajani's denial of the heart and counting it as one of the faces of the problematic ambiguity in the meanings; Because it is out of the right way in the systems, and its starting in dealing with the inverted analogy from the subjective worlds of the text and not from tribal ideas prior to the texts, as well as other results proven in the conclusion of the research

Key words : rhetorics, inverted simile , Hazem Al-Qartajani ,Old literature , criticism

حازم القُرطاجنّي (ت٦٨٤هـ) والتّشبيه المَقلُوب

حازم القُرطاجنّي (ت٦٨٤هـ) والتّشبيه المَقلُوب

أ.م.د. مازن داود سالم الربيعي

■ مُقدّمة :

التّشبيه ببرق البلاغة ورايتها السامقة في سماء الإبداع و فن أصيل من فنون البيان العربي , له مكانته الخاصة عند فرسان البلاغة والشعر ؛ لما له من سعة النطاق وامتداد الحواشي وتشعب الأطراف . والتّشبيه من أكثر الأساليب البيانية دلالة على مَقدرة البليغ , ومدى أصالته في فن القول , ونظم القريض .

وما يزال البلغاء يتنافسون ويرسمون الصورة التّشبيهية بعد الأخرى مالئين شعرهم باللآليء والدرر في نصوص شعرية تأسر الأسماع وتأخذ القلوب كل مأخذ .

وتأتي أهمية التّشبيه في قدرته على تأليف الالفاظ من جهة , وابتكار مشبه به بعيد عن الأذهان من جهة أخرى , والقدرة على إيجاد وجه شبه دقيق بين الأشياء . أضف الى ذلك قدرته على ربط المعاني وتوليد بعضها من بعض الى مدى بعيد لا يكاد ينتهي .

ويرى البلاغيون أنّ بلاغة التّشبيه تكمن في مبلغ طرافته وأصالته , وبُعد مرماه ومقدار ما فيه من خيال . ولعل من المعلوم أنّ أقل التّشبيهات مرتبة في البلاغة ما ذكرت أركانه جميعا لأنّ بلاغة التّشبيه مبنية على ادعاء أنّ المشبه عين المشبه به ووجود الأداة ووجه الشبه معا يحولان دون هذا الادعاء , فإذا حُذفت الأداة وحدها , أو وجه الشبه وحده , ارتفعت بلاغة التّشبيه قليلا .

ومرد الأمر في بلاغة التّشبيه ارتباطه ارتباطا وثيقا بعوامل متشابكة تتمثل في مدى ما يكون بين طرفيه من تباين في الجنس أو المكان , ينشا عنه تباعد في الحضور الذهني والنفسي , وفي كونه صورة مركبة , أضف الى ذلك ما يتوافر بين أجزاء تلك الصورة المركبة وعناصرها من غرابة وبُعد عن المألوف , يمنحها خصوصية تتميز بها عن التّشبيهات التقليدية التي يستوي في تصورها العامة والخاصة , ولا تقتصر هذه الخصوصية على الجمع بين العناصر المتباعدة المتنافرة , إذ إنّها تتعدى ذلك الى قدرتها على التأثير النفسي ؛ حيث يشعر المتلقي إزاءها بمشاعر الدهشة والإعجاب لهذه القوة الخيالية التي ألّفت بين الأشياء المتنافرة , والأجزاء المتباينة تأليفا مثيرا , أحدث تأثيرا حادا أو صدمة شعورية سريعة في نفس المتلقي .

ويحاول هذا البحث المتواضع أن يسلط الضوء على التّشبيه المقلوب بوصفه أحد أنواع التّشبيه المعروفة , ويجلّي الصورة التّشبيهية وهي بهذه الخصوصية , ثم يضع اليد على الموقف البلاغي منها في المدونة البلاغية العربية القديمة , وخصوصا عند حازم القُرطاجني (٦٨٤هـ) الذي انفرد بموقف بلاغي عمد فيه الى إنكار هذا النوع من التّشبيه أعني – التّشبيه المقلوب – وبيان ما يقف خلف ذلك من جدّة وإفادة ورأي .

■ التّشبيه لغةً :

جاء في العين ((شبه : الشّبَهُ : ضربٌ من النّحاس يُلقَى عليه دواءٌ فيَصفرَ , وسُمّي شَبَهاً , لأنه شُبّه بالذّهب . وفي فلانٍ شَبَهٌ من فلان , وهو شَبَهُهُ وشِبْهُهُ , أي : شبيهُهُ , ونقول : شبهت هذا بهذا , وأشبه فلان فلانا , وقال الله عز وجل :{{ آياتٌ مُحكماتٌ هُنّ أم الكتاب وآخر متشابهات }} آل عمران { ٧ } أي يشبه بعضها بعضا , والمشبهات من الأمور المُشكلات)) (١) .

وعرّفه إبن منظور : ((شَبَهَ : الشِبهُ والشَبهُ والشَبيهُ : المثل , والجمع أشباه , وأشبه الشيءُ الشيءَ : ماثله . وفي المَثل : من أشبه أباه فما ظلم , وأشبه الرجل أمه : وذلك إذا عجز وضعف .....والتّشبيه : التّمثيل .)) (٢) .

وجاء في المُعجم الوسيط ((التّشبيه : هو التّمثيل , وتشبّه بغيره : ماثله وجاراه في العمل)) (٣) .

■ التّشبيه اصطلاحا :

لعل أقدم من عرّف التّشبيه اصطلاحا هو محمد بن يزيد المُبرّد (ت ٢٨٥هـ) إذ قال : ((وأعلم أنّ للتّشبيه حدا لأن الأشياء تتشابه من وجوه وتتباين من وجوه , وإنما ينظر الى التّشبيه من أين وقع , فإذا شُبّه الوجه بالشمس والقمر , فإنما يُراد به الضياء والرونق , ولا يُراد به العِظم والإحراق , قال الله جل وعز : ((كأنّهن بيضٌ مكنونٌ)) (٤) , وذكره قُدامة بن جعفر (ت٣٣٧هـ) بقوله : ((إنّ الشيء لا يُشبّه بنفسه ولا بغيره من كل الجهات فالشيئان إذا تشابها من جميع الوجوه يقع بينهما تغاير البتة اتحدا فصار الأثنان واحدا)) (٥) , وحدّه الرماني (ت ٣٨٦هـ) بقوله : ((العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الأخر في حس أو عقل)) (٦) , فيما أشار السكاكي (ت ٦٢٦هـ) الى أن ((تشبيه الشيء لا يكون إلّا وصفا له بمشاركته المشبه به , والشيء لا يتصف بنفسه كما إن عدم الاشتراك بين الشيئين في وجه من الوجوه يمنعك محاولة التّشبيه بينهما)) (٧) . وربط حازم القرطاجني (ت٦٨٤هـ) في زمن متأخر من حياة المدونة البلاغية العربية , بين التّشبيه وبين المحاكاة بقوله : ((إعلم أن الشيء إذا حوكي بالشيء والمقصود محاكاة أحد فعلين بالأخر , وكان في فعل المحاكي تقصير عن فعل المحاكى به فإنه مستساغ في الشعر أن يحاكي المقصر عنه , وأن يجعل مثله , أو مربيا عليه , إذا كانت الزيادة في ذلك الفعل مستحسنة بالنسبة الى ما يُراد منه من منفعة أو غير ذلك , ومن هذا تشبيه الفرس بالريح والبرق)) (٨) , ولعل حازما حين ذكر المحاكاة ؛ أراد محاكاة فعل المشبه , بفعل المشبه به في المعادلة التّشبيهية , وكان يريد بالمحاكاة التّشبيه . ولعل من الملاحظ بعد هذا العرض الموجز الصلة الوثيقة بين الجذر اللغوي للتشبيه وبين معناه الاصطلاحي , إذ إن فن التّشبيه هو معين ثر ينهل منه الشعراء قديما وحديثا , ولعل أكثر الأشعار حُسنا وجمالا ورصانة , ما كان قائما على الصور التّشبيهية الملونة بألوانين البيان العربي وصوره الرصينة والموحية ؛ لما له من صلة بالذائقة الشعرية , ولقربه من وجدان الشاعر والمتلقي معا .

■ القَلب في اللغة والاصطلاح :

القلب في اللغة يعني : ((رد الشيء من جهة الى جهة , ومنه : قلبتُ الثوبَ قلبا)) (٩) , ولم يخرج البلاغيون عن هذا المعنى للقلب في رد الشيء من جهة الى جهة , أو تقديم شيء على شيء (١٠) . وأشار التفتازاني الى أن القلب هو ((أن يُجعل أحد أجزاء الكلام مكان الأخر , والأخر مكانه , أو أن يُجعل أحد أجزاء الكلام مكان الأخر , والأخر مكان ذلك الأحد على وجه يثبت حُكم كل منهما للأخر)) (١١) . وذكره الخطيب القزويني وهو يتحدث عن خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر فقال : ((ومنه ....القَلب , كقول العرب : عرضتُ الناقةُ على الحوض)) (١٢) وهذا من القَلب المعنوي ؛ لأنّ المعروض عليه يجب أن يكون ذا شعور واختيار لأجل أن يميل الى المعروض أو يُحجم عنه , لكن لما كان المُعتاد في ذلك أن يؤتى بالمعروض الى المعروض عليه , وكانت الناقة هي التي يؤتى بها الى الحوض نزل كل منهما منزلة الأخر .

■ التّشبيه المقلوب اصطلاحا :

حدّ ضياء الدين بن الأثير(ت٦٣٧هـ) التّشبيه المقلوب بقوله : ((أن يُجعل المشبه به مشبها , والمشبه مشبها به)) (١٣) , وأشار الخطيب القزويني (ت٧٣٩هـ) الى التّشبيه المقلوب بقوله : ((هو أن يكون الأمر بالعكس بأن يُجعل فيه المشبه مشبها به قصدا الى الإدعاء أنه أكمل منه في وجه الشبه)) (١٤) , وذكر النويري (٧٣٣هـ) ((أن تقصد على عادة التخييل أن توهم في الشيء القاصر عن نظيره أنه زائد فتشبه الزائد به)) (١٥) , ومن الظاهر أنّ مدار الامر في التعريفات السالفة أن تدور حول قضية قَلب المُعادلة التّشبيهية التي جرت عليها العرب في تشبيه الاقل قوة أو الأضعف بالأقوى نحو جعل المشبه مشبها به بادعاء أن وجه الشبه في هذه الحالة يكون أقوى وأظهر , كما في بيت محمد بن وهيب الحميري يمدح فيه الخليفة المأمون :

وبدا الصباحُ كأنَّ غُرّته وجهُ الخليفة حينَ يُمتدحُ

فتشبيه الصباح بوجه الخليفة ادعاء أن وجه الخليفة أتم من الصباح في الضياء وأعرف وأشهر (١٦) , ولعل المقصود من ذلك الغلو والإفراط ومجاوزة الحد .

ومن هذا القبيل أيضا قول البحتري يصف بركة المتوكل (١٧) :

كأنها حين لجّت في تدفقها يدُ الخليفةِ لمّا سال واديها

إذ يبالغ الشاعر البحتري في تشبيه بِركَة الماء بالتدفق والعطاء بيد الخليفة على سبيل التّشبيه المقلوب والإيهام أن يد الخليفة أتم وأقوى هبة وعطاء من البِركة .

■ موقف البلاغيين من التّشبيه المقلوب :

أشترط يحيى بن حمزة العلوي (ت٧٤٩هـ) في استعمال التّشبيه المقلوب ألّا يرد إلّا فيما كان متعارفا حتى تظهر فيه صورة الانعكاس لأنه لو ورد في غير المتعارف لكان قبيحا ؛ لأنّ مُطّرد العادة في البلاغة على تشبيه الأدنى فإذا جاء على خلاف ذلك فهو معكوس (١٨) . ويُنظر الى موقف العلوي هنا بأنه اقرار لما تعارف عليه البلاغيون من أن المشبه به ينبغي أن يكون الأصل وهو الأقوى والأوضح ولكن الشاعر قد يخرج على هذه القاعدة وهو يصور معانيه فيأتي بالتّشبيهات التي لا تجري على ما قرره البلاغيون (١٩) .

ووقف عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) بحذر من هذا النوع من التّشبيه محذرا من عاقبة التفريط في استعماله , وركن الى معايير تطبيقية وضعها لإيضاح موقفه منه , معلقا على تشبيه النجوم بالنَّور في بيت أبي فراس الحمداني :

قد أقذفُ العيسَ في ليلٍ كأن به وَشيًا من النَّورِ أو رَوضًا من العُشُبِ

فقال : ((وقد يمتنع هذا القَلب في طرفي التّشبيه وذلك أن يكون بين الشيئين تفاوت شديد في الوصف الذي لأجله نشبه ثم قصدنا أن نلحق الناقص منهما بالزائد مبالغة ودلالة على أنّه يفضل أمثاله فيه)) (٢٠) ولعل سبب هذا الامتناع بحسب الجرجاني يعود أن هناك أشياء ((هي أصول في شدة السواد كخافية الغراب والقار والليل ونحو ذلك , فإذا شبهت شيئا بها كان طلب العكس في ذلك عكسا لما يوجبه العقل ونقضا للعادة ؛ لأن الواجب أن يثبت المشكوك فيه بالقياس على المعروف لا أن يتكلف في المعروف تعريفه بقياس على المجهول , وما ليس بموجود على الحقيقة فأنت إذا قلت في شيء (هو كخافية الغراب) فقد أردت أن تثبت له سوادا زائدا على ما يعهد في جنسه وأن تصحح زيادة هي مجهولة له , وإذا لم يكن ههنا ما يزيد على خافية الغراب في السواد فليت شعري ما الذي تريد من قياسه على غيره)) (٢١) , وكذا الحال في قول إبن الرومي الذي قلب التّشبيه وشبه سواد مداد الحبر بالليل بقوله (٢٢) :

حِبْرُ أبي حفصَ لُعابُ الليلِ يسيلُ للأخوان أيَّ سَيلِ

وخلاصة القول فإنّ التّشبيه المقلوب لا يصلح للإستعمال البلاغي في كل موضع بأن تجعل الأصل فرعا والفرع أصلا في المعادلة التّشبيهية من أجل المبالغة ؛ بل ينبغي استعماله والركون اليه فيما جرت عليه أعراف العرب وما تواضعوا عليه من جهة , وحين يؤسس لنفسه بُعدا لا يرتهن الى الممارسة العربية التقليدية في فن التّشبيه من جهة أخرى .

■ التّشبيه المقلوب في القرآن الكريم :

أجاز بعض البلاغيين القَلب في كلام العرب ؛ شعرهِ ونثرهِ , ومنع وقوعه في القرآن الكريم , وأشار محمد بن علي الجرجاني (ت ٧٢٩هـ) الى ذلك في بحثه عن التّشبيه المقلوب ((إنّ ما جاء في القرآن الكريم مما يوهم القلب يجب تأويله , وإن قلب التّشبيه وإن كان من محاسن البيان لما قلناه , لكن لا يوجد في كلامه تعالى ؛ لأن كلامه على وجه التحقيق لا على وجه المبالغة التي تشبه الكذب)) (٢٣) , والى ذلك أشار أبو حيان الاندلسي أيضا (٢٤) .

وعلى صعيد البلاغيين المحدثين أنكر الدكتور فضل حسن عباس وقوع التّشبيه المقلوب في القرآن الكريم , وقال تعقيبا على بعض الايات التي قال فيها البلاغيون بالتّشبيه المقلوب : ((والذي يبدو لي أنّ الامر ليس كما ذكر , بل إن كل تشبيه من هذه التّشبيهات جاء على صورته من غير ما قلب ولا عكس , وإن كل آية من هذه الايات الكريمات جاء كل تشبيه فيها متسقا مع السياق الذي ذكرت فيه)) (٢٥) . ولعل من أشهر المواضع التي ذكر بعض البلاغيين أنها تشتمل على التّشبيه المقلوب في القرآن الكريم , قوله جلّ وعلا : ((ذلك بأنّهم قالوا إنما البيعُ مِثلُ الرّبوا وأحلّ اللهُ البيعَ وحرّم الرّبوا)) { البقرة : ٢٧٥} , على جعل الرّبا أصلا , وقاسوا به البيع , لأنّ الكلام في الرّبا لا في البيع , ذهابا منهم الى جعل الرّبا في باب الحل أقوى حالا وأعرف من البيع (٢٦) , في حين ذهب محمد بن علي الجرجاني الى منع التّشبيه المقلوب في الأية الكريمة بقوله : ((والأصل تمثيل الرّبا بالبيع . والجواب : أنّه ليس من كلامه تعالى , وإنما هو كلام مستحلي الرّبا , ولا ريب أنّ الرّبا أظهر عندهم في الحِلّ من البيع , فجعلوه مشبها به لحصول شرطه فيه دون البيع , والحكاية يجب أن تطابق المحكي)) (٢٧) , والى ذلك ذهب بعض الباحثين في انكار التّشبيه المقلوب في هذه الاية الكريمة بدعوى أنّ سياق الأية كله يسير نحو الحث على الانفاق , وبذل المال في ابتغاء مرضاة الله , وتحريم التعامل بالرّبا , وتسامح الناس فيما بينهم من معاملات , من أجل هدم هذا القياس الفاسد و هذه المماثلة الباطلة ؛ نظرا لأنّ الرّبا كان من أصول تعاملاتهم يسير مع البيع سواء بسواء , فجاء السياق ليبين أنّ الرّبا مما حرمه الله , وإنه لا مماثلة بينه وبين البيع في الحِلّ ؛ لما فيه من أكل أموال الناس بالباطل , واستغلال حاجتهم .

إن استعمال صيغة التّشبيه هنا لا لأجل معنى القلب في الآية كما ظن بعض البلاغيين ؛ وإنما جاءت صيغة التّشبيه هنا لأنّه لما تساوى عندهم البيع والرّبا وتماثلا كان معنى هذا مما أصله التشابه عندهم , فجاءت صيغة التّشبيه لمناسبة المقام , وإيضاح تصورهم للعلاقة بين البيع والرّبا , والنص القرآني هو للإيجاز أدعى من التّشبيه المقلوب ؛ لأنه أجمل حال قريش آنذاك في تسويتهم الفاسدة بين البيع والرّبا , وفيه من بلاغة الإيجاز ما يربو على بلاغة القَلب , وما يزيد على معنى المبالغة المقصودة في التّشبيه المقلوب (٢٨) .

■ حازم القُرطاجني :

أنكر حازم القرطاجني القَلب وعدّه من وجوه الغموض المُشكِل في المعاني ؛ لأنّه خارج عن الطريق السّوي في النَّظم (٢٩) , بسبب مما يُحدثه القَلب من اشتكال في المعاني ((فيكون المعنى متحرفا بغرض الكلام عن مقصده الواضح معدولا اليه عما هو حق بالمحل منه حتى يوهم المعنى أنّ المقصود به ضد ما يدل عليه اللفظ المعبر عنه . وأكثر الناس يجعلون هذا النوع من الكلام مقلوبا)) (٣٠) , ويسترسل حازم قائلا : ((وبعض الناس يتأول ما ورد من ذلك تأويلا فيه سلامة من القلب , ويرى أنّ ذلك وإن بَعُد التأويل أولى من حمل الكلام على القلب , إذ العبارة إنما تدل على المعنى بوضع مخصوص وترتيب مخصوص , فإن بُدّل ذلك الوضع والترتيب زالت تلك الدلالة)) (٣١) , ولعل ركون حازم القرطاجني الى التأويل السليم بعيدا عن القَلب وتداعياته الذي ينبغي ألّا يُقاس عليه ؛ ((لأنَّه إن كان الكلام مقلوبًا، وكانت العبارة مقصودًا بها غير ما تدل عليه بوضعها، وسوغ هذا عند حامل الكلام على هذا المذهب إنَّ المقصد من الكلام واضح، وإن كانت العبارة غير دالة عليه، فقد ذهب بالكلام مذهبا فاسدا وكان ذلك خطأ في العبارة، وفي سعة الكلام مندوحة عن المذاهب الفاسدة، وإن كان الكلام غير مقلوب، ولكنَّه قصد به معنى آخر غير المعنى الذي يريد به من يجعل الكلام مقلوبًا، فذلك أيضًا قبيح؛ لأنَّه وضع المعنى البعيد الذي لم يؤلف موضع المعنى القريب المألوف، فلا يجب أيضًا سلوك هذا المذهب. فكلا التأويلين في هذا الباب خارج بالكلام عن المهيع الذي يكون للمعنى فيه موقع من النفس ومكانة مكينة من الفهم. فالواجب في فصيح الكلام أن يكون خاليًا منه)) (٣٢) ويسوق القرطاجني في ذلك شاهدا شعريا للشاعر الحطيئة حمله بعض البلاغيين على القلب وأنكر حازم حمله على القَلب , كما في قول الحطيئة (٣٣) :

فلمَّا خَشيتُ الهُونَ والعيرُ ممسِكٌ على رغمه ما أمسك الحبلَ حافرُه

ويعلق القرطاجني على البيت قائلا : ((لأنَّ الحبل إذا أمسك الحافر فالحافر أيضًا قد شغل الحبل وأمسكه عن أن يتخلى عنه ويتفلّت، فعلى هذا ليس بمقلوب)) (٣٤) .

إنَّ انطلاق حازم القرطاجني في آرائه النقدية من عوالم النص جعله يدرك أنَّ الفهم القائم على قلب المعنى وتحويله عن وجهه ومقصده الذي هو أحق بالمحل إلى غرض آخر يمكن أن يوهم أنّ المعنى المقصود به ضد ما يدل عليه اللفظ المعبّر به عنه؛ لأنَّ قلب المفهوم يوهم أن اللفظ المعبر به عن ذلك المعنى يدل عليه .

أضف إلى ذلك ما يرخّص له القلب من تحريك موقعية مكونات رسالةٍ خصّها مرسلها أن تكون بهذا الوضع وبهذا الترتيب . ولعل هذا التوجه الذي دفع القرطاجني إلى إنكار القلب وحمله على ما يوقع في الخطأ سبقته إليه أكثر من إشارة قديمة في التراث النقدي العربي أطلقها الجاحظ في باب (إفساد الأعراب لنوادر المولدين) بقوله (({...} انقلب المعنى مع انقلاب نظمه، وتبدَّلت صورته)) (٣٥) , وكذلك المبرّد بقوله : ((والكلام إذا لم يدخله لبس جاز القلب للاختصار)) (٣٦) , ولعلَّها جميعًا أدركت بطلان انتزاع المعنى خارج البناء اللغوي، وكأن المعنى معلوم في الذهن مسبقًا، ولا قيمة لنسقه التعبيري الذي يحمله وكأن اللغة لا تمنح المعاني أبعادًا جديدة ، وكأن المعاني لا تختلف باختلاف المباني (٣٧) .

لقد التفت حازم القرطاجني إلى أنَّه في حال كان الكلام مقلوبًا وكان القصد منه ليس بالصورة التي يدل عليها وضعه في النص وكان الناقد قد سوّغ لنفسه حمله على القلب لإيضاح معنى البيت وكانت العبارة في أصلها لا تدل على (المعنى المقلوب) أدّى ذلك إلى خطأ العبارة وبطلان الكلام، وإن كان غير مقلوب وقد قصد به القائل غير المعنى الذي أفضت إليه عملية القلب فذلك قبيح أيضًا لأنَّه وضع المعنى البعيد (الغامض) الذي لم يؤلف موضع المعنى القريب المألوف.

وهكذا فإنَّ قلب معنى الرسالة التي لم يقصد مرسلها إليه فيه بطلان لدلالة وظيفتها الإفهامية، وقلب معنى الرسالة التي يقصد مرسلها القلب يفضي إلى مالا تقصده وظيفتها الإفهامية أيضًا وفي ذلك خروج عن سنن الإبداع الذي يقتضي قراءة أسراره وهو متشكل على حاله التي هو فيها لإنتاج المعنى هنا الآن، ولو كانت الموضوعات تدرك بالقلب لما كان على وجه الأرض غير المقلوب وهذا ما لا يقبله عقل ولا يصدقه منطق. بقي أن نقول إنَّ حازمًا القرطاجني نزع إلى التأويل لمعالجة دلالة البيت وأداء وظيفته الإفهامية التي تجاوزت المألوف من قوانين اللغة وحرّكت سواكنها العقلية والمنطقية الثابتة كما هو الحال في حركة الحبل والحافر أحدهما نحو الآخر مدركًا أنَّ هذا النمط من القول الغامض يخرج بطبعه عن السائد والمتعارف عليه من القيم؛ لأنَّه ينبني على مفهوم الاختراق لكل ما ينحاز إلى الجاهز، وأنَّ مفهوم الشعر صار يقوم على هدم اللغة المأنوسة وزحزحة العلاقات القائمة بين مكوناتها وأنَّ التغيير فيها فعل فردي لا حصر له (٣٨) .

■ الخاتمة :

وفي الختام نخلص الى النتائج الأتية .

- اختلف البلاغيون في الموقف من التّشبيه المقلوب بين رافض غير تقليدي , وبين مؤيد تقليدي , وكان ذلك بحسب الأداة التي تعامل بها كل بلاغي مع هذا النوع من التّشبيه .
- لا يصلح التّشبيه المقلوب للاستعمال البلاغي في كل موضع بأن تجعل الأصل فرعا والفرع أصلا في المعادلة التّشبيهية من أجل المبالغة ؛ بل ينبغي استعماله والركون اليه فيما جرت عليه أعراف العرب وما تواضعوا عليه من جهة , وحين يؤسس لنفسه بُعدا لا يرتهن الى الممارسة العربية التقليدية في فن التّشبيه من جهة أخرى .
- أنكر حازم القرطاجني القَلب وعدّه من وجوه الغموض المُشكِل في المعاني ؛ لأنه خارج عن الطريق السّوي في النَّظم, بسبب مما يُحدثه القَلب من اشتكال في المعاني , ودعا الى التأويل السليم بعيدا عن القلب وتداعياته .
- انطلق حازم القرطاجني في تعامله مع التّشبيه المقلوب من عوالم النص الذاتية وليس من أفكار قبلية سابقة على النصوص ؛ وهذا بالضبط ما جعله يدرك أنَّ الفهم القائم على قلب المعنى وتحويله عن وجهه ومقصده الذي هو أحق بالمحل إلى غرض آخر يمكن أن يوهم أنّ المعنى المقصود به ضد ما يدل عليه اللفظ المعبّر به عنه؛ لأنَّ قلب المفهوم يوهم أن اللفظ المعبر به عن ذلك المعنى يدل عليه .

- أدرك حازم القرطاجني أنّ القلب يمكن أن يرخّص بتحريك موقعية مكونات رسالةٍ خصّها مرسلها أن تكون بهذا الوضع وبهذا الترتيب , وهذا ما يمكن أن يؤدي الى خطأ العبارة وبُطلان الكلام , وبطلان للوظيفة الإفهامية التي تؤديها النصوص ؛ لأنّ القائل لم يقصد الى ذلك .

■ الهوامش :

١- كتاب العين , الخليل بن احمد الفراهيدي , تح: عبد الحميد هنداوي , دار الكتب العلمية , بيروت , ط١ , ٢٠٠٣: ٢/ ٣٠٤.

٢- لسان العرب , ابن منظور , دار صادر , بيروت , ط١ , ٢٠٠٠: ٨/ ١٨ .

٣- المعجم الوسيط , مجمع اللغة العربية , المكتبة الاسلامية للطباعة والنشر , تركيا , (د. ط) , (د. ت) : ١/ ٤٧١ .

٤- الكامل , محمد بن يزيد المبرد , عارضه بأصوله وعلق عليه : محمد ابو الفضل ابراهيم , السيد شحاته , دار نهضة مصر , القاهرة , (د.ط) , (د. ت) : ٣/ ٥٢ .

٥- نقد الشعر , قدامة بن جعفر . تح : كمال مصطفى , مكتبة الخانجي , ١٩٦٣ : ١٢٢.

٦- النكت في اعجاز القران , الرماني , عني بتصحيحه الدكتور عبد العليم , مكتبة الجامعة الملية الاسلامية , ١٩٣٤ : ٥ .

٧- مفتاح العلوم , السكاكي , ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه : نعيم زرزو , دار الكتب العلمية , بيروت , ط٢, ١٩٨٧ : ٣٣٢.

٨- منهاج البلغاء وسراج الأدباء , حازم القرطاجني , تح : محمد الحبيب ابن الخوجة , دار الغرب الاسلامي , بيروت , ط٣, ١٩٨٦: ١١٥.

٩- معجم مقاييس اللغة , احمد بن فارس بن زكريا , تح : عبد السلام هارون , دار الفكر , بيروت , ١٩٧٩: ٥/ ١٧ .

١٠- ينظر : جماليات القلب في البلاغة العربية , د. صالح عيد الزهراني , مجلة جامعة الامام , العدد ١٩ , ١٤١٨هـ : ٣٧٤ .

١١- المطوّل , التفتازاني , تح: الدكتور عبد الحميد هنداوي , دار الكتب العلمية , بيروت , ط٣, ٢٠١٣: ٢٩٧ .

١٢- الايضاح في علوم البلاغة , الخطيب القزويني , مكتبة الاداب , القاهرة , ١٩٩٩: ١٢٢/١ .

١٣- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر , ضياء الدين بن الأثير تح: د. احمد الحوفي و د. بدوي طبانة , دار نهضة مصر , القاهرة , (د.ت) : ١٥٦/٢ .

١٤- الايضاح في علوم البلاغة : ٣/ ٣٨ .

١٥- نهاية الارب في فنون الأدب , شهاب الدين النويري , تح: مفيد قميحة , دار الكتب العلمية , بيروت , ط١, ٢٠٠٤ : ٧/ ٤٢ .

١٦- ينظر: معاهد التنصيص على شواهد التلخيص , عبد الرحيم العباسي , المطبعة البهية , القاهرة , ١٣١٦ : ١/ ١٥٣ .

١٧- ديوان البحتري , تح: عمر فاروق الطباع , دار الارقم , بيروت , ٢٠٠٠: ٢/ ٥٩٢ .

١٨- ينظر : الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز , يحيى بن حمزة العلوي , القاهرة , ١٩١٤ : ١/ ٣٠٩ .

١٩- ينظر: معجم المصطلحات البلاغية وتطورها , د. احمد مطلوب , مطبعة المجمع العلمي العراقي , بغداد , ١٩٨٣ : ٢/ ٢٠٨ .

٢٠- اسرار البلاغة , عبد القاهر الجرجاني , تح : ريتر , استنبول , ١٩٥٤ : ٢٠٢ .

٢١- م . ن : ٢٠٢ .

٢٢- م .ن : ٢٠٢ .

٢٣- الاشارات والتنبيهات في علم البلاغة , محمد بن علي الجرجاني , تح : عبد القادر حسين , مكتبة الاداب , القاهرة , ١٩٩٧: ٥٢ .

٢٤- ينظر: تفسير البحر المحيط , ابو حيان الاندلسي , تح: عادل عبد الموجود , دار الكتب العلمية , بيروت , ط١, ١٩٩٣: ٥/ ١١٥ .

٢٥- البلاغة فنونها وأفنانها , علم البيان والبديع , د. فضل حسن عباس , دار الفرقان , الاردن , ٢٠٠٥ : ١١٠ .

٢٦- ينظر: مفتاح العلوم : ٣٤٤ .

٢٧- الاشارات والتنبيهات : ١٧٢ .

٢٨- ينظر : التّشبيه المقلوب في القران الكريم بين القبول والرد (دراسة بلاغية في تراث اهل العلم) , د. محمد ابو العلا ابو العلا الحمزاوي , المجلة العلمية كلية اللغة العربية باسيوط , ع٣٨ , ج١ , ٢٠١٩ : ٨٣-٨٤ .

٢٩- ينظر : منهاج البلغاء : ١٨٣-١٨٤ .

٣٠- منهاج البلغاء : ١٧٩ .

٣١- م . ن : ١٧٩ .

٣٢- م . ن : ١٧٩ .

٣٣- ديوان الحطيئة , برواية وشرح ابن السكيت , دراسة وتبويب : د. مفيد محمد قميحة , دار الكتب العلمية , بيروت , ط١, ١٩٩٣: ٩٨ .

٣٤- منهاج البلغاء : ١٨١ .
٣٥- الحيوان , الجاحظ , تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون , تقديم : د. احمد فؤاد باشا , د. عبد الحكيم راضي , مكتبة الاسرة , القاهرة , ط٢, ٢٠٠٤ : ١/ ٢٨٢ .
٣٦- الكامل : ١/ ٣٧٠ .
٣٧- ينظر : الغموض والبلاغة العربية , (رسالة ماجستير) , صالح سعيد الزهراني , جامعة ام القرى , كلية اللغة العربية , ١٩٨٩ : ٢٨٥ .
٣٨- ينظر : جمالية الالفة (النص ومتقبله في التراث النقدي) , شكري المبخوت , المجمع التونسي للعلوم والاداب والفنون (بيت الحكمة) , تونس , ط١ , ١٩٩٣ : ٤٧ .

■ المصادر والمراجع :

● أولا : الكتب .

القرآن الكريم .

١- اسرار البلاغة , عبد القاهر الجرجاني , تح : ريتر , استنبول , ١٩٥٤.
٢- الاشارات والتنبيهات في علم البلاغة , محمد بن علي الجرجاني , تح : عبد القادر حسين , مكتبة الاداب , القاهرة , ١٩٩٧.
٣- الايضاح في علوم البلاغة , الخطيب القزويني , مكتبة الاداب , القاهرة , ١٩٩٩.
٤- البلاغة فنونها وأفنانها , علم البيان والبديع , د. فضل حسن عباس , دار الفرقان , الاردن , ٢٠٠٥ .
٥- تفسير البحر المحيط , ابو حيان الاندلسي , تح: عادل عبد الموجود , دار الكتب العلمية , بيروت , ط١, ١٩٩٣ .
٦- جمالية الالفة (النص ومتقبله في التراث النقدي) , شكري المبخوت , المجمع التونسي للعلوم والاداب والفنون (بيت الحكمة) , تونس , ط١ , ١٩٩٣ .
٧- الحيوان , الجاحظ , تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون , تقديم : د. احمد فؤاد باشا , د. عبد الحكيم راضي , مكتبة الاسرة , القاهرة , ط٢, ٢٠٠٤ .
٨- ديوان البحتري , تح: عمر فاروق الطباع , دار الارقم , بيروت , ٢٠٠٠.
٩- ديوان الحطيئة , برواية وشرح ابن السكيت , دراسة وتبويب : د. مفيد محمد قميحة , دار الكتب العلمية , بيروت , ط١, ١٩٩٣.
١٠- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز , يحيى بن حمزة العلوي , القاهرة , ١٩١٤ .
١١- الكامل , محمد بن يزيد المُبرّد , عارضه بأصوله وعلق عليه : محمد ابو الفضل ابراهيم , السيد شحاته , دار نهضة مصر , القاهرة , (د.ط) , (د. ت) .
١٢- كتاب العين , الخليل بن احمد الفراهيدي , تح: عبد الحميد هنداوي , دار الكتب العلمية , بيروت , ط١ , ٢٠٠٣.
١٣- لسان العرب , ابن منظور , دار صادر , بيروت , ط١ , ٢٠٠٠.
١٤- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر , ضياء الدين بن الأثير تح: د. احمد الحوفي و د. بدوي طبانة , دار نهضة مصر , القاهرة , (د.ت) .
١٥- المطوّل , التفتازاني , تح: الدكتور عبد الحميد هنداوي , دار الكتب العلمية , بيروت , ط٣, ٢٠١٣.
١٦- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها , د. احمد مطلوب , مطبعة المجمع العلمي العراقي , بغداد , ١٩٨٣ .
١٧- معجم مقاييس اللغة , احمد بن فارس بن زكريا , تح : عبد السلام هارون , دار الفكر , بيروت , ١٩٧٩.
١٨- المعجم الوسيط , مجمع اللغة العربية , المكتبة الاسلامية للطباعة والنشر , تركيا , (د. ط) , (د. ت) .
١٩- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص , عبد الرحيم العباسي , المطبعة البهية , القاهرة , ١٣١٦ هـ .
٢٠- مفتاح العلوم , السكاكي , ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه : نعيم زرزو , دار الكتب العلمية , بيروت , ط٢, ١٩٨٧ .
٢١- منهاج البلغاء وسراج الأدباء , حازم القرطاجني , تح : محمد الحبيب ابن الخوجة , دار الغرب الاسلامي , بيروت , ط٣, ١٩٨٦.
٢٢- النكت في اعجاز القران , الرماني , عني بتصحيحه الدكتور عبد العليم , مكتبة الجامعة الملية الاسلامية , ١٩٣٤ .
٢٣- نقد الشعر , قدامة بن جعفر . تح : كمال مصطفى , مكتبة الخانجي , ١٩٦٣ .
٢٤- نهاية الارب في فنون الأدب , شهاب الدين النويري , تح: مفيد قميحة , دار الكتب العلمية , بيروت , ط١, ٢٠٠٤ .

● ثانيا : الدوريات .

١- التّشبيه المقلوب في القرآن الكريم بين القبول والرد (دراسة بلاغية في تراث اهل العلم) , د. محمد ابو العلا ابو العلا الحمزاوي , المجلة العلمية كلية اللغة العربية باسيوط , ع٣٨ , ج١ , ٢٠١٩ .
٢- جماليات القلب في البلاغة العربية , د. صالح عيد الزهراني , مجلة جامعة الامام , العدد ١٩ , ١٤١٨هـ .

● ثالثا : الرسائل الجامعية .
الغموض والبلاغة العربية , (رسالة ماجستير) , صالح سعيد الزهراني , جامعة أم القرى , كلية اللغة العربية , ١٩٨٩ .